الفصل الثالث

شبهات غير الموحدين والرد عليها

توطئة

قبل الحديث عن الشرك ومظاهره والرد على شبهات المشركين، نحاول أن نبرز ما كانت عليه الأمم قبل الشرك وخاصة العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم.

لقد اعترف العرب بوجود الله الخالق للسماوات والأرض، وقد صور القرآن الكريم عقيدتهم في آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون :٨٤-٨٩] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت :٦١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف :٩] .

ولقد اعتبر العرب الإيمان بالله مسألة دين [١] ولم يبذلوا كبير جهد في الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى؛ لأن وجود الله فطرة في نفوسهم، فالبعرة تدل على البعير والسير على المسير.

وكما يقول عامر بن الظرب العدواني: «**إني ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا ولا جائيًا إلا ذاهبًا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء**» [٢].

---

(١) الحكمة العربية (ص ٢٩٩).

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (٤/١١٩).

ومع اعتراف العرب بوجود الله فإنهم كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات كما أخبر الله في غير ما آية [١]، ومع اعترافهم بوجود الله فقد عرفوا التوحيد قبل أن تدخل الأصنام الجزيرة العربية. وقد عرفوا التوحيد من طرق متعددة، منها:

١-**الفطرة**: يقول تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم :٣٠]، والفطرة هي ما أودع في النفوس من الإيمان بوجود الله وتوحيده.

٢-**الأنبياء**: يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر :٢٤]، فالآية تشير إلى أنه ما من أمة إلا وأرسل الله إليها نذيرًا والرسل تأتي بالتوحيد وعبادة الله وحده، وهناك بعض الروايات تذكر أن آدم عليه السلام كان مسكنه الحرم وأخبر القرآن الكريم أن إبراهيم وإسماعيل رفعا القواعد من البيت، يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة :١٢٧][٢].

٣-**الصحف القديمة**: وأشهرها صحف إبراهيم وموسى. وقد أورد ابن إسحاق رواية فيها: «**أن قريشًا وجدوا في الركن كتابًا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو: أنا ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها تسعة أفلاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن**» [٣].

ونص آخر أورده ابن إسحاق ومفاده أنه وجد في الكعبة حجر قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة مكتوب فيه من يزرع خيرًا يحصد غبطة ومن يزرع شرًّا

---

(١) الإيمان لابن تيمية (ص ٧٢).

(٢) انظر: الحكمة العربية (ص ٢٧٩- ٢٩٨).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٢٠٢- ٢٠٣) وأخشباها: أي جبلاها.

يحصد ندامة [١].

فهذه الصحف كانت من ضمن المصادر التي عرف العرب من خلالها وحدانية الله. وكما يقول أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي: **«وعلى فرض صحة هذه الروايات وليس هناك مبرر لرفضها فإن تلك الصحف والأخبار كانت مصدرًا للتوحيد في الوقت الذي تصلح أن تكون أمارات وشواهد قاطعة على بقاء التوحيد وأسبقيته»** [٢].

ويدل على وجود التوحيد قبل عبادة الأصنام ما أورده الدكتور (جواد علي) نقلاً عن المسعودي من أن بعض الحنفاء ضجوا من تغيير عمرو بن لحي للحنيفية واستبداله الأصنام بها، يروي المسعودي شعرًا عن (شحنة بن خلف) أو سحنة بن خلف الجرهمي يقول فيه:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا [٣]

وقد انحرف العرب عن التوحيد وعبدوا مظاهر وثنية مثل سائر الأمم من قبلهم ولذا فقد كان محل النزاع بين الرسل وبين أقوامهم توحيد الله وعبوديته يقول (الشهرستاني): كان محل النزاع بين الرسل وبين الخلق التوحيد، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر :١٢] [٤].

وقد توجه العرب مثل غيرهم من الأمم إلى بعض المظاهر المادية كالأصنام والكواكب وغيرها بالعبادة وتقديم القرابين، وسنتحدث عن الوثنيين

---

(١) نفسه (١/٢٠٣).
(٢) الحكمة العربية (ص ٢٩٨- ٢٩٩).
(٣) المفصل في تاريخ العرب نقلاً عن المسعودي (٢/٢٩- ٣٠).
(٤) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٤) والتفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود (١/٧٢).

المشركين من العرب خاصة، مشيرين إلى من اشترك معهم من الأمم السابقة في التوجه إلى هذه المظاهر المادية ، ونحن نعتبر أن الرد على شبهة المشركين من العرب رد على غيرهم إذ إن أصول شبهاتهم واحدة، وأيضًا تفنيد شبهاتهم أصولها واحدة [١].

* * *

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٨- ١٩).

المبحث الأول

الوثنيون المشركون

هؤلاء هم الذين يدينون بوجود إله ويتخذون معه آلهة أخرى في صور شتى، منها:

عبادة الأصنام:

من المظاهر الوثنية التي توجه إليها الماديون المؤلهون، الأصنام التي تعد عبادتها أقدم عبادة؛ لأن نوحًا عليه السلام وهو أقدم الأنبياء جاء بالرد على عبدة الأصنام، ومن ثمَّ فإن عبادتها كانت موجودة قبل نوح وأكثر أطراف الأرض مستمرون على عبادتها (١).

ولقد عبدها العرب ونصبوها حول الكعبة، وقدموا لها القرابين، وقاتل من قاتل من المشركين بسبب التمسك بعبادتها ، وتدور شبهة عبادة الأصنام عند العرب خاصة حول:

أولاً: اعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى:

وقد صور القرآن الكريم هذه الشبهة على لسانهم في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر :٣] .

---

(١) عبد الأصنام من الأمم القديمة على سبيل المثال لا الحصر: المصريون الذين قدسوها واتخذوا من صور ملوكهم آلهة، نحتوها وتوجهوا إليها بالعبادة وما زالت التماثيل التي عبدها المصريون من دون الله قائمة إلى يومنا هذا ، وعبدها الهنود والبوذيون وتوجه إليها الصينيون. انظر: ديانة مصر القديمة (ص ١٢١)، وانظر مقال: الحياة في مصر في الدولة الوسطى، ضمن تاريخ العالم (٥٧٣/٣)، وانظر: البيروني تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٨١)، وانظر: الهند القديمة (ص ١٥٢) ، وانظر: في عبادة الصينيين للأصنام: مروج الذهب للمسعودي (١١٧/١) والفهرست لابن النديم (ص ٤١٢).

ثانيًا: اعتقادهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله:

وقد عرض القرآن الكريم لهذه الشبهة في آيات كثيرة منها هذه الآيات:

١-في سورة يونس يقول تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس :١٨].

٢-في سورة الزمر يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر :٤٣].

وقد ورد أن العرب كانت تتشفع [١] باللات والعزى وترجو شفاعتهن، وورد قولهم: واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى [٢]. وقد كانت قريش تردد ذلك في طوافهم حول الكعبة.

ثالثًا: تقليد الآباء والأجداد:

لقد عبد العرب الأصنام وكان من أسباب عبادتهم لها تقليدهم لآبائهم وأجدادهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾ [البقرة :١٧٠].

وتعدى الأمر منهم إلى حد الافتراء على الله بفعلهم الفواحش وزعمهم أن الله أمرهم بها وأنهم وجدوا آباءهم عليها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف :٢٨].

وقد تكررت هذه الشبهة عند قوم إبراهيم [٣]، وقوم صالح ، وقوم شعيب [٤]، وقد جمع القرآن القائلين بهذه الشبهة في آية واحدة من سورة

---

(١) انظر: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية (ص ٢٩- ٣١) للشيخ حسن خالد مفتي لبنان، دار الإنماء العربي الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م.

(٢) الأصنام لابن الكلبي (ص ١٨).

(٣) سورة الأنبياء الآيات: (٥١- ٥٣).

(٤) سورة هود الآيات: (٦٢- ٨٧).

الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف :٢٣] .

ويوم القيامة يبين الله عز وجل سبب ضلال أهل النار وذلك بتقليدهم واتباعهم لسادتهم وكبرائهم.

رابعًا: تعليق عبادتهم للأصنام على المشيئة والقدر:

يعرض الله عز وجل شبهتهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨].

وفي سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل :٣٥] .

وفي سورة الزخرف يقول سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف :٢٠] .

هذه مجمل الشبه التي كررها عباد الأصنام متذرعين بها لصحة عبادتهم لها، والقرآن حين يعرض شبهة عباد الأصنام لا يخص العرب وحدهم؛ لأنه لم ينزل لهم فحسب وإنما يعرض شبهة كل من قال بقولهم من المتقدمين والمتأخرين ؛ لأن الانحراف مصدره واحد . يقول تعالى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة :١١٨].

وتبعًا لعبادة العرب للأصنام فإنهم أشركوهم مع الله في التشريع والأمر والنهي وقسموا لهم نصيبًا من أنعامهم، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ

فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام :١٣٦] . ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام :١٣٩].

الرد على شبهات المشركين:

أولًا: بالنسبة لاعتقادهم أن الأصنام تقرب إلى الله زلفى. نرى أن القرآن الكريم يجيب عليهم بعدة أجوبة منها:

أ-التهديد واتهامهم بالكذب الصريح:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر :٣] .

والقرآن الكريم أحيانًا يقتصر في الجواب على مجرد التهديد كما في هذه الآية، وذلك لأن صاحب الباطل إذا ذكر مذهبًا وكان مصرًّا عليه فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار من قلبه فإذا زال الإصرار من قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل على بطلانه فيكون أفضى إلى المقصود.

وبعد التهديد رماهم بالكذب؛ لأن من أصر على الكفر بقى محرومًا من الهداية وهم قد كذبوا لوصفهم الأصنام أنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض [(١)]، والجواب بشطريه مبني على رد الدعوى في الشبهة من أساسها.

* * *

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٦/٢٤١- ٢٤٢) وأبو السعود (٤/٤٥٥- ٤٥٦).

ب-عدم المساواة بين من يخلق ومن لا يخلق:

إن هذه الأصنام لا تحمل حياة، ولا تسمع ولا تبصر وما دامت لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فكيف تملك لغيرها؟ ويستخدم القرآن الكريم في الرد على المشركين ما يعرف عند العلماء بدليل المقابلة، أي المقابلة بين من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وبين القادر على كل شيء، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦].

والمقابلة بين الأعمى والبصير «**الأعمى من لا يدرك الحقائق، والبصير من يدركها، والظلمة التي تعتم النفس والنور الذي يشرق به القلب ومن يخلق ومن لا يخلق ومن عنده أدنى مُسكة من العقل يوقن بأن الأصنام عمياء صماء لا تخلق فكيف تقرب أحدًا عند السميع البصير الحي الخالق الواحد القهار؟**»(١).

ومرة أخرى يتحداهم الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤].

وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات تبين أن الجماد الذي ليست فيه حياة أصلاً.. ولا يسمع ولا يبصر ولا يصح أن يعبد من دون الله (٢)، فهي لم تخلق أي جزء من أجزاء العالم ولم تعن الخالق على خلقه.

وأخيرًا يعدد الله نعمه على خلقه، من خلق الإنسان وخلق الأنعام وما فيها

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (٣١/١١، ٣٢)، والمعجزة الكبرى للشيخ أبي زهرة (ص ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) القرطبي (١٨٣/١٦).

من منافع كثيرة للإنسان ثم أنزل الماء من السماء لإنبات الزرع والانتفاع به، وتسخير الشمس والقمر والنجوم وتسخيره البحر وما يستخرج منه من الطعام والحلية، وحفظ الأرض بالرواسي الشامخات [(١)]، ثم يقابل سبحانه بين من خلق هذه الأشياء ومن لا يخلق من الأصنام وغيرها، يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ **[النحل :١٧]**.

يقول الرازي: «**اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل شرحًا وتفصيلًا لأنواع نعم الله تعالى استنكر أن يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه، لا سيما إذا كان المعبود جمادًا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال:** ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ **[النحل :١٧]** أي: من يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر على شيء أصلاً، فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ويكفي أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، والأصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار، فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها؟» [(٢)].

وما دامت الأصنام لا تحمل حياة، فهي لا تخلق ولا تقدر على شيء حتى ولو كان ذبابة، وقد استخدم القرآن الكريم مع المشركين ضرب الأمثال، ومن هذه الأمثلة ما ورد في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ **[الحج :٧٣]** .

وهذه الآية من أبلغ ما أنزل الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة عليهم بأن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية - التي تقضي القدرة على المخلوقات والإحاطة بالمعلومات - صورًا وتماثيل

(١) سورة النحل الآيات: (٤- ١٦).
(٢) التفسير الكبير للرازي (١٢/٢٠) بتصرف.

يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره، وأحقره ولو اجتمعوا له، وخص الله الذباب بالذات لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته فإذا كانت الأصنام لا تقدر على خلق ذبابة أو استنقاذ شيء منها فكيف تقدر على أن تكون آلهة مطاعة؟ وهذه الآية أقوى الحجج وأوضح البراهين [١].

هذه الاستدلالات مجتمعة الغرضُ منها بيان عجز الأصنام عن فعل شيء أو خلقه فكيف تعبد ويتقرب لها؟ فإذا كانت الأصنام قد عجزت عن تغيير سنة واحدة من سنن الله في الكون وعجزت أن تخلق ذبابة بل عجزت أن تستنقذ ما استلبه الذباب منها. فليست بآلهة ؛ لأن من خصائص الإله القدرة العامة الشاملة [٢].

ج-عدم استجابة الأصنام للمشركين:

من الوجوه التي رد الله عز وجل بها على المشركين عدم استجابة الأصنام لهم، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف :٥-٦].

يقول الرازي: إنه لا أمر أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعوا من دون الله الأصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهي إذا دعيت لا تسمع ولا تصح منها الإجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة.

وأنزل الله الأصنام منزلة العقلاء ووصفها بالغفلة وهي جمادات؛ لأن المشركين لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب [٣]، في الدنيا والآخرة، وقد وردت آيات عدة تبين تحدي الله للمشركين يوم القيامة أن يأتوا بشركائهم [٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٢٢- ٢٣) والقرطبي (١٦/٩٧) وأبو السعود (٤/٣٤).

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (١/٩٠).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٨/٢، ٥ – ٦).

(٤) انظر: سورة القصص الآية: ٦٤، والأنعام الآية: ٢٢، والنحل الآية: ٢٧، والقصص الآية: ٦٢، ٧٤، فصلت الآية: ٤٧، والقلم الآية: ٤١.

وبعد هذه الردود المقنعة، نلاحظ أن القرآن رد تلك الدعاوى من أساسها واتهمهم بالكذب وهددهم بما سيحدث لهم يوم القيامة، ثم فندها على احتمال التسليم بوجودها، وجاء التفنيد على أن الأصنام لا حياة لها ولا تسمع ولا تعقل ولا تخلق شيئًا ولا تستجيب لمن يدعوها، فضلاً عن أن تسمعه أو تبصره، وهكذا سد القرآن الكريم كل الشبه التي احتج بها المشركون في دعواهم أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى.

وبالدليل العملي أثبت القرآن الكريم ذلك في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام وتكسيره للأصنام، لقد أفحمهم سيدنا إبراهيم عليه السلام حين سألوه: مَنْ كَسَّرَ الأصنام؟ فأشار إلى كبيرهم وطلب منهم سؤاله، فلما اعترفوا أمامه أن الأصنام لا تنطق نكسوا على رءوسهم وأجابوا بخزي: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥] فتلقف إبراهيم منهم هذا الاعتراف وسفَّه عقولهم ؛ لأنها تعبد من لا يملك الدفاع عن نفسه فضلاً عن أن يوفره لغيره، ولما أفحمهم وعجزوا عن مناقشته قالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥-٦٧][١].

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تثبت عجز الأصنام وأنها لا تملك لنفسها شيئًا والذي يدعي ويحاول ذلك فيأت بالدليل والبرهان على دعواه، ولا حجة ولا برهان ولا دليل عند المشركين على ما يدعونه للأصنام من أنها تقربهم إلى الله زلفى.

ثانيا: الرد على اتخاذ الأصنام شفعاء عند الله:

من البداية يصف الله عز وجل من يدعي أن الأصنام تشفع عند الله، بالجهل والكذب، وهذا وحده كافٍ لعدم الالتفات إليهم، ويكمن الرد على

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/٥٧٨- ٥٧٩) والقرطبي (١١/٢٩٨- ٣٠٠).

المشركين في دعواهم في نقاط هي:

أ-عدم وجود الشفاعة من الأصنام أصلاً:

لقد توجهت بعض آيات القرآن الكريم لتأكيد هذا الأمر، يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس :١٨] .

والمعنى: أتخبرونهم بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالم المحيط بجميع المعلومات لم يكن ذلك شيئًا؛ لأن الشيء ما يعلم به ويخبر عنه فكان خبرًا ليس له مخبر عنه، والمراد بنفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه وبيان أنه لا وجود له ألبتة ؛ لأنه لو كان موجودًا لكان معلومًا لله تعالى، وحيث لم يكن معلومًا لله وجب ألا يكون موجودًا (١).

يقول الزمخشري: «**فإن قلت: كيف أنبئوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام وإعلام بأن الذي اعتقدوه باطل غير منطوٍ نحو على صحة، فكأنهم يخبرونهم بما لا يتعلق به علمه**» (٢).

ب-**إن الشفيع لا بد أن يكون من أرباب الجاه**: والأصنام لا جاه لها فالذي يشفع لا بد أن تكون له رجاحة عقل ومنزلة عند المشفوع له، والأصنام ليست كذلك، يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر :٤٣] .

والهمزة للاستنكار والاستقباح والتوبيخ، أي قل: أتتخذونهم شفعاء ولا يملكون شيئًا في الدنيا ولا يعقلون أمرًا فلا شفاعة لهم بداهة ؛ لأن الشفاعة

---

(١) الكشاف (٢/٢٣٠) والرازي (١٧/٦٠).

(٢) نفسه (٢/٢٣٠).

كلها لله الذي بيده ملك السماوات والأرض ولا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ومأذونًا له وكلاهما مفقود هنا [١].

يقول الرازي: «**اعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالًا فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله تعالى . وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار إما أن يطمع بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول باطل ؛ لأن هذه الأصنام لا تملك شيئًا ولا تعقل شيئًا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟ والثاني باطل ؛ لأنه في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة فكأن الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره**» [٢].

ج-**تعليق الشفاعة على الإذن الإلهي**: إذا سلمنا جدلاً أن للأصنام شفاعة فلا شفاعة إلا بالإذن والرضا، والله سبحانه وتعالى لم يأذن ولم يحدثنا أن الأصنام تحمل هذه المزية، يقول الله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم :٢٦] .

ومفاد هذه الآية أن الملائكة في السماوات وهم المقربون لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا بعد الإذن والرضا لمن يشاء الله منهم ، فما بال الأصنام التي اعتبرها القرآن لا حقيقة لها فما هي إلا أسماء سماها المشركون ما أنزل الله بها من سلطان ، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ :٢٢-٢٣].

---

(١) أبو السعود (٤/٤٧١- ٤٧٢)، والقرطبي (١٥/٢٦٣- ٢٦٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٦/٢٨٥).

يقول ابن تيمية: فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق:

الأول: ملك شيء ولو قل.

الثاني: شركهم في شيء من الملك.

الثالث: المعاونة التي يصيرون بها أندادًا.

وهذه الأمور الثلاثة منتفية. فبقي:

الرابع: الشفاعة فعلقها بالمشيئة وهو لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى [(١)].

بهذه الوجوه فند القرآن الكريم كل ما يمكن أن يتعلق به المشركون من شفاعة الأصنام لهم، فشفاعة الأصنام غير موجودة وعلى فرض وجودها فإن الشفيع يجب أن يكون من أرباب الجاه والسلطان ورجاحة العقل، والأصنام لا شيء عندهم من هذه الأسباب، وأخيرًا على فرض الجاه والسلطان فإن الشفاعة لا بد أن تكون بالإذن والرضا من الله تعالى، والله سبحانه وتعالى لم يأذن لهم ولم يرض عنهم.

ويوفق ابن حزم بين هذه الآيات التي تثبت الشفاعة في القرآن الكريم والآيات التي تنفيها بقوله: **«صحت الشفاعة بنص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقينًا أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أثبتها عز وجل، وإذ لا شك في ذلك، فالشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار»** [(٢)].

ثالثًا: تقليد المشركين لآبائهم في الشرك:

إن التقليد متابعة بلا دليل أو برهان ويكون في العقائد وفى العبادات وهو في العقائد الصحيحة مختلف في صحته، وصحة إيمان المقلد، أما التقليد في

---

(١) توحيد الألوهية (١/١١٤- ١١٥).

(٢) الفصل لابن حزم (٥٣/٤).

الباطل فهو مرفوض شرعًا وعقلاً، وسنورد آراء المتكلمين في التقليد وحكم إيمان المقلد، ثم نتحدث عن تقليد المشركين ورد القرآن الكريم عليهم.

أولاً: التقليد في نظر المتكلمين:

يعرف التقليد بأنه الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف دليله [١]، وهو ينقسم إلى التقليد في الفروع والتقليد في الأصول.

فأما التقليد في الفروع فهو جائز كما يقول القرطبي [٢].

وأما في الأصول: فهناك خلاف بين العلماء فيه، ويعرض ابن حزم آراء طوائف الإسلام فيه فيقول:

«**ذهب محمد بن جرير الطبري والأشعرية كلهم حاشا السمناني إلى أنه لا يكون مسلمًا إلا من استدل وإلا فليس مسلمًا**» [٣]، ويبدو أن النظر والتفكر والتدبر قد اشترطه علماء الإسلام لمعرفة الله ، ولذا فإن المدارس الكلامية كلها من اعتزالية وأشعرية وماتريدية وغيرها على إثبات النظر طريقًا إلى العلم [٤].

وقد أورد الشيخ البيجوري الأقوال في التقليد على هذا النحو، يقول وحاصل الخلاف فيه على أقوال ستة:

الأول: عدم الاكتفاء بالتقليد بمعنى عدم صحة التقليد فيكون المقلد كافرًا.

الثاني: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان مطلقًا أي سواء كان فيه أهلية للنظر أم لا.

الثالث: الاكتفاء به مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر والاستدلال وإلا

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ٣٦).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٢١١).

(٣) الفصل لابن حزم (٤/٢٨).

(٤) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص ٣٤، ٣٥)، وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص ١٨) هامش المحقق.

فلا عصيان.

الرابع: إن من قلَّد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لاتباعه القطعي، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ.

الخامس: الاكتفاء به من غير عصيان مطلقًا ؛ لأن النظر شرط كمال، فمن كان أهلية للنظر ولم ينظر فقد ترك الأولى.

السادس: إن إيمان المقلد صحيح، ويحرم عليه النظر وهو محمول على المخلوط بالفلسفة (١).

ويرجح البيجوري الرأي الصحيح من هذه الآراء بأن من قلد وفيه أهلية للنظر والاستدلال كان عاصيًا وإن لم يكن فيه أهلية لا يكون عاصيًا.

ويرفض ابن حزم تسمية اتباع الحق تقليدًا، ويسمي هذا الاتباع بالإيمان. أما التقليد فهو ما كان فيه اتباع للباطل.

يقول ابن حزم: «**إن التقليد لا يحل ألبتة وإنما التقليد أخذ المرء قولًا من دون رسول الله ﷺ** ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط، ولا بأخذ قوله بل حرَّم علينا ذلك ونهانا عنه وأما أخذ المرء قول رسول الله ﷺ الذي افترض علينا طاعته وألزمنا اتباعه وتصديقه وحذرنا عن مخالفة أمره وتوعدنا على ذلك أشد الوعيد فليس تقليدًا بل هو إيمان وتصديق واتباع للحق وطاعة لله عز وجل وأداء للمفترض» (٢).

وابن تيمية يرى أن كل من خالف الرسول ﷺ مقلد متبع لمن لا يجوز له اتباعه، وكذا من اتبع الرسول بغير بصيرة وتبيُن، فالتقليد المزعوم هو اتباع هوى من لا يجوز اتباعه، كالذي يترك طاعة رسل الله ويتبع ساداته وكبراءه (٣).

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ٣٧، ٣٨).
(٢) الفصل لابن حزم (٤/٢٩- ٣٠).
(٣) مفصل الاعتقاد (٤/٢٠٠- ٢٠١).

كان هذا هو رأي علماء الإسلام في التقليد الحق إذا صح أن نسمي اتباع الحق تقليدًا، فإن من العلماء من منعه ومنهم من جوَّزه بالرغم من أنه في الحق، فما بالنا إذا كان التقليد في الباطل وهو ما حدث من المشركين.

ثانيًا: التقليد في الباطل:

التقليد في الباطل هو اتباع الآباء والأجداد والرؤساء والكبراء في غير ما أمر الله ، ولقد رد الله عز وجل على المشركين حين عللوا سبب كفرهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم وتتمثل ردود القرآن الكريم في الآتي:

١-**تسفيه عقول المقلدين**: وذلك ؛ لأن الإنسان ميزه الله عز وجل عن سائر الحيوانات بالعقل والتفكير. ووردت آيات كثيرة تحث الإنسان على النظر والتفكر وتخرجه من ربقة الجمود وتطلق له العنان في التعقل والتدبر ليصل عن طريق ذلك لمعرفة الحق والتمسك به.

والذين قلدوا آباءهم وأجدادهم ألغوا عقولهم، ومن ثم تعجب القرآن الكريم منهم وقد ناقشهم القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة :١٧٠] .

ويتعجب القرآن الكريم منهم. والمعنى أيتبعونهم ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئًا من الدين ولا يهتدون إلى الصواب؟ (١) ويصفهم بالحيوانات التي لا تسمع ولا تعقل، يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٧١]، أي أنهم في اتباعهم لآباؤهم وأجدادهم وهم على الباطل قد عطلوا مدارك الفكر والسمع والبصر التي أعطاهم الله إياها ، وها منتهى الزراية بمن يعطل الفكر ويغلق منافذ المعرفة والهداية (٢).

---

(١) الكشاف (١/٣٢٨).

(٢) ظلال القرآن (١/١٥٥- ١٥٦).

يقول صاحب غرائب آي التنزيل: «فإن قيل: **ما وجه صحة التشبيه في قوله تعالى**: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ﴾ [البقرة:١٧١] وظاهر تشبيه الكفار بالراعي؟ قلنا: فيه إضمار تقديره: ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعي مع الأغنام، أو تقديره: ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعي. أو مثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم. أو مثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعي.

فإن قيل: كيف خص المنعوق بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء مع أن كل عاقل كذلك أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء؟

قلنا: المراد بقوله: لا يسمع أنه لا يفهم، كقولهم: أساء سمعًا فأساء إجابة أي أساء فيهما [١] وهو تجريح».

ب-وصفهم بالكذب والافتراء على الله: ذلك بأنهم ادعوا زورًا وبهتانًا أن اقترافهم الفواحش إنما هو لتقليد آبائهم وتنفيذهم لأمر الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا وهذا الشيء قد ابتدعوه من عند أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله عليهم ذلك [٢].

يذكر الرازي أن المشركين كانوا يحتجون على أقوامهم على فعل الفواحش بأمرين:

الأول: **التقليد**: وهذا الأمر مسكوت عنه؛ لأنه إشارة إلى محض التقليد

---

(١) غرائب آي التنزيل (٢١/١) ملحق مجلة الأزهر عدد المحرم ١٤١٠هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٠٨/٢).

وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة فلو كان التقليد طريقًا حقًّا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًّا، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق زاهرًا جليًّا لكل أحد لذا لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

الثاني: أمر الله بها: لقد كذبهم الله في زعمهم وافترائهم عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :٢٨] .

فالله لا يأمر إلا بالقسط ثم بين محض افترائهم على الله في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :٢٨] والمراد من هذا الاستفهام: أنكم تقولون: إن الله أمركم بهذه الأفعال المخصوصة، فعلمكم بأن الله أمركم بها حصل لأنكم سمعتم كلام الله ابتداء من غير واسطة أو عرفتم ذلك عن طريق الوحي والأنبياء.

أما الأول: فمعلوم الفساد بالضرورة ؛ لأن الكلام لا يكون إلا ممن اصطفاهم الله من الأنبياء عن طريق الوحي.

وأما الثاني: فباطل على قولكم لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء على الإطلاق ، وإذا كان الأمر كذلك فلا طريق لهم إلى تحصيل العلم بأحكام الله تعالى، فكان قولهم: إن الله أمرنا بها قولاً على الله تعالى بما ليس معلومًا، وهو باطل (١).

وبهذه المناقشة القائمة على الحجة والإقناع يبطل الله عز وجل ما يتعلق به المشركون من التقليد وافتراؤهم على الله بادعائهم أنه أمرهم بالفحشاء.

ج-المكابرة والإصرار على الخطأ أساس التقليد:

إن القرآن الكريم يصور المشركين على مر الأزمنة وفي مختلف الأمكنة وهم يحتجون بتقليد الآباء على الباطل . والمقولة التي يرددونها لكل نبي أنهم

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٤/٥٥- ٥٦)، وروح المعاني للألوسي (٨/١٠٦- ١٠٧).

على دين آبائهم، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف :٢٣][١].

إن هذه الآية ساقها الله عز وجل بعد أن تسائل عن مصدر الشرك لدى المشركين فقال تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ [الزخرف :٢١]، والمعنى: هل أعطيناهم كتابًا من قبل شركهم فهم به مستمسكون أي: فيما هم فيه؟ أي: ليس الأمر كذلك لقوله عز وجل: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم :٣٥][٢]، أي: لم يكن ذلك.

فالمشركون لا مستند لهم فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة والمراد بها الدين، وقولهم وإنا على آثارهم مهتدون دعوى منهم بلا دليل [٣]، فليس من المنطق إذا قيل اتبعوا ما أنزل الله أن يقولوا بل نتبع ما عليه آبائنا؛ لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، وليس من المنطق أن يلغوا عقولهم ويتخذوا من الألف ومن العادة والعرف مقياسًا يعرفون به الحق [٤]، إذ أن مصدر الحق هو الله، والمشركون لم يتبعوا العقل ولا النقل في تقليدهم للآباء والأجداد، وقد عرض عليهم الرسول ﷺ فيما يحكيه القرآن أن يأتيهم بأفضل وأهدى مما عليه آباؤهم وأجدادهم فماذا كانت النتيجة؟

يقول تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف :٢٤] ، أي: أن كل نذير قال لأمته أولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم القائم على الضلال وعدم الهداية؟ ولكنهم رفضوا

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٢٣، وانظر: الآية: ٧٨ من سورة يونس والآية: ٦٩- ٧١.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٦/٤).

(٣) المصدر السابق (٢٦/٤).

(٤) انظر: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٥٦- ٥٧).

وبينوا السبب الحقيقي لرفضهم وقالوا: إنا كافرون لا نريد الاهتداء ولا الاقتداء حتى وإن جئتنا بما هو أهدى مما نحن عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف :٢٥][١].

يقول الأستاذ العقاد: «**ولعل أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة الأسلاف التي تسمى بالعرف والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية، وهذه الموانع كلها موانع العرف والقدوة العمياء والخوف الذليل إنما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الإنسان أن يعيش بغير عقل يرجع إليه في أكرم مطالبه الإنسانية وهو صلاح ضميره ولكنها تزول على الأثر يوم يرجع إلى عقله أمام كل عقبة من عقباتها وقد يشق عليه أن يذلل تلك العقبات أو يناجزها ولكنه حق العقل عليه ولا بد من حق تهون من أجله المشقة ؛ لأنها أهون من سلب الإنسان فضيلته العليا واستكانته إلى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على علمها ما هو أرفع منها**»[٢].

وبعد أن يبين القرآن الكريم ضلال مقلدي الآباء والأجداد بإبراز أن تقليدهم لا يستند على كتاب يرشدهم إلى ذلك وإن كان معهم فليظهروه، وأيضًا لا يستند على عقل؛ لأن آباءهم على ضلال، ثم يعرض على لسان رسله أن يأتي لهم بالحق ولكنهم مصممون على الكفر والضلال، بعد ذلك كله يؤكد القرآن الكريم المسئولية الفردية للإنسان أمام الله، وأن الابن لا يتحمل وزر أبيه وأن الفرد سيحاسب عما اقترفت يداه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام :١٦٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم :٣٩-٤٠] .

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٧/٢٠٦- ٢٠٧)، وأبو السعود (٤/٥٤٠)، والقرطبي (١٦/ ٧٤- ٧٥).

(٢) انظر: التفكير فريضة إسلامية (ص ١٨- ١٩) بتصرف.

فكما أن الإنسان لا يتحمل أوزار غيره كذلك يجب ألا يُحمّل الإنسان وزره لغيره وإلا لما استقامت الأمور ولما سارت الحياة.

وهناك آيات كثيرة فيها يتبرأ الأتباع من المتبوعين (١)، والسادة من الضعفاء (٢)، وفيها يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه (٣) وذلك يوم القيامة.

رابعا: الرد على تعليقهم الشرك على القدر:

لقد احتج المشركون في دفع دعوة الأنبياء والرسل، بأن قالوا: كل ما حصل فهو بمشيئة الله تعالى وإذا شاء الله منا ذلك فكيف يمكننا تركه؟ لأنه ليس في وسعنا وطاقتنا أن نأتي بفعل على خلاف مشيئة الله.

ولقد رد عليهم القرآن الكريم دعواهم ووصفهم الله بالجهل والكذب.

أ-بالجهل: لأنهم لا علم لهم به ولا حجة وهذا يدل على فساد مذهبهم. ولو كان عندهم علم فليظهروه ولأنهم لم يظهروه فهم يدعون دعوى لا دليل عليها ولا تقوم على الحق وإنما تقوم على الظن؛ لأن اعتبار علة شركهم بالله تعالى هي المشيئة الإلهية فقط مع تجاهل إرادتهم واختيارهم لهذا الشرك اتباع للظن ومجافاة للحقيقة (٤)، ولقد رد الله عليهم وبيّن أن حجتهم داحضة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم مساكنهم ولذلك طالبهم الله بالبينة: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨] ، وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة (٥).

ب-بالكذب: لأن قولهم كان على سبيل الاستهزاء والسخرية ودفعًا لدعوته

(١) انظر: الآيات (١٦٦- ١٦٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: سورة سبأ الآية: ٣١- ٣٣.

(٣) انظر: الآيات (٣٤- ٣٧) من سورة عبس.

(٤) التفسير الكبير للرازي (١٣/٢٢٦)، وانظر: القضاء والقدر (١/٢٣٣).

(٥) انظر: تفسير القاسمي (٦/٢٥٤٤).

ﷺ وفعلاً لعصيانه وعدم الانقياد لهديه، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى ، فما صدر عنهم كلمة حق أريد بها باطل ولذلك وصفهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا تكذيب النبي ﷺ في وجوب اتباعه . يقول صاحب الانتصاف: «**أن الرد عليهم كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون الاختيار والقدرة وإن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة لأنفسهم فشبههم بمن اغتر بهذا الخيال فكذب رسل الله عز وجل وأشرك بالله واعتمد على أنه يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة. ثم بيَّن تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله**: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام :١٤٩] ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعين بقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام :١٤٩]»[١].

ثم إن احتجاجهم بالقدر حجة عليهم لا لهم إذ إنهم حين احتجوا بالمشيئة على كفرهم كان يجب عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من الإسلام فهو إنما وقع لهم بمشيئة الله ، ومن ثمَّ يجب أن لا يكون بينهم وبين المسلمين مخالفة ومعاداة بل موافقة وموالاة، ويلزم على قول المشركين أن كل ما خالف مذهبهم من النحل يجب أن يكون على حق لأنه بمشيئة الله وقدره [٢]، ولكن المشركين احتجوا بالقدر، فيما يتصورون أنه يعفيهم من المسئولية أمام الله، أما حين يلزمهم ذلك بمعاملة المسلمين بالمثل فإن موقفهم يختلف.

ويذهب ابن حزم إلى كذب وقع منهم لا بسبب مقالتهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام :١٤٨] ، ولكن بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وتكذيب من قال مثل قولهم من السابقين لرسلهم، يذكر ابن حزم أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٥٩/٢).

(٢) انظر: الألوسي (٥٢/٨)، والقاسمي (٢٥٤٤/٦).

﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام :١٤٨]، من أعظم الحجج على القدرية لأنه تعالى لم ينكر عليهم قولهم ولو أنكره لكذبهم فيه وإنما أنكر قولهم بغير علم وإن وافقوا الصدق بموافقتهم لكلامه عز وجل في قولهم أنه لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا، وأخبر تعالى أنه لو شاء لهداهم فاهتدوا وبين أنه له الحجة عليهم في ذلك ولا حجة لأحد عليه، ثم بيَّن تعالى أنه إنما أنكر تكذيبهم لرسله [١]، ولذلك قال: «كذَّب» بالتشديد ولم يذمهم بالكذب في قولهم ذلك وإلا يقال كذب بالتخفيف إشارة إلى أن ذلك الكلام في نفسه حق وصدق [٢].

وقد دار خلاف بين المعتزلة وأهل السنة حول مشيئة الله ومشيئة العبد .. فالمعتزلة يرون أن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، ويستدل «القاضي عبد الجبار» على ذلك بآيات منها قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف :٢٩][٣]، ويعلق على هذه الآية بقوله: **«فقد فوَض الأمر في ذلك إلى اختيارنا فلولا أن الكفر والإيمان متعلقان بنا ومحتاجان إلينا وإلا كان لا معنى لهذا الكلام وتنزل منزلة قوله من شاء فليسود ومن شاء فليبيض، فكما أن ذلك سخف؛ لأن الإسوداد والإبيضاض غير متعلقين بنا كذلك في مسألتنا»** [٤].

أما أهل السنة: فيذهبون إلى أن الحوادث كلها مرادة من الله تعالى خيرها وشرها نفعها وضرها [٥].

وقد فند العلماء ما ذهب إليه المعتزلة. يقول ابن حزم في معرض تفنيده لما

---

(١) الفصل لابن حزم (٣/٨٧- ٨٨).

(٢) انظر: ابن حزم (٣/٨٧- ٨٨)، وانظر: القاسمي محاسن التأويل (٦/٢٥٤٤).

(٣) سورة الكهف الآية: ٢٩، ويستدل بالآيات من سورة البقرة رقم ٢٨، وسورة النساء ٣٩، والتوبة ٨٢- ٩٥، والفرقان ١٥، والسجدة ١٧، والرحمن ٦٠، والواقعة ٢٤، والحديد ٨، والمدثر ٤٩، هذه الآيات بها يستدل على أن العبد يخلق أفعال نفسه.

(٤) انظر: الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٣٦٠- ٣٦٢) بتصرف.

(٥) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص ١٤٦- ١٤٧)، ولمع الأدلة للجويني (ص ٩٧).

ذهب المعتزلة إليه: «**ويكفي من هذا اجتماع الأمة على قول: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)، فهذا على عمومه موجب أن كل ما في العالم كان أو سيكون فقد شاءه الله تعالى نصًا ولا يحتمل تأويلًا على أنه أراد كون كل ذلك فمن ذلك قوله تعالى:** ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير :٢٨-٢٩] .

فنص الله تعالى نصًّا جليًّا على أنه لا يشاء أحد استقامة على طاعته تعالى إلا أن يشاء الله تعالى أن يستقيم، فلو صح قول المعتزلة إن الله تعالى شاء أن يستقيم كل مكلف لكان بنص القرآن كل مكلف مستقيم لأن الله تعالى عندهم قد شاء ذلك، وهذا تكذيب مجرد لله تعالى، فصح يقينًا لا مدخل للشك في صحته أنه تعالى شاء خلاف الاستقامة منهم ولم يشأ أن يستقيموا بنص القرآن» [(١)].

وينبغي أن نشير إلى أن عدم مشيئة الله تعالى لاستقامتهم راجعة إلى علم الله أنهم يستحبون الكفر على الإيمان، فالله علم منهم ذلك ولكن لم يجبرهم على الكفر؛ لأن العلم صفة انكشاف وليست صفة تأثير.

وممن جادل المعتزلة أيضًا الإمام الرازي، يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف :٢٩]، وهي الآية التي استدل بها القاضي عبد الجبار والزمخشري [(٢)]. يقول الرازي: «**ولقد سألني بعضهم- أي المعتزلة- عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا، وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضًا يدل له فإن العقل الاختياري يمنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار إذا عرفت هذا فنقول حصول**

---

(١) انظر: الفصل لابن حزم (٣/ ٨٢)،وانظر ردوده القيمة (٣/ ٨٣- ٩٢).
(٢) الكشاف (٤٨٢/٢).

ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه لزوم أن يكون كل قصد واختيار مسبوقًا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري»[١].

يقول صاحب الانتصاف: «إن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقًا له وإلى العبد من حيث كونه مقرونًا بقدرته واختياره ولا تنافي بين الإضافتين»[٢].

ويوفق ابن القيم بين آيات القرآن الكريم التي تثبت المشيئة لله في جميع الأمور وبين بعض الآيات الأخرى التي تثبت عدم رضاء الله عن الكفر والفساد. يقول في تحليله الرائع: «إن الله سبحانه له الخلق والأمر وأمره سبحانه وتعالى نوعان: أمر كوني قدري وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعًا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني وما لم يوجد منه لم تتعلق به مشيئته ولا محبته فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى:

إرادة كونية فتكون هي المشيئة.

وإرادة دينية فتكون هي المحبة.

إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر :٧]، وقوله:

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢١/١١٩).

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/٤٨٢).

﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة :٢٠٥] ، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة :١٨٥]، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة والأمر غير الخلق (١)، وهذا البيان «لابن القيم» يرد على كثير من الاعتراضات التي من الممكن أن يوجهها البعض إلى القرآن الكريم في نسبته الهداية والمشيئة إلى الله أحيانًا وإلى العبد أحيانًا أخرى، فمشيئة الله عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنًا ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط في شيء من الطرفين (٢).

تفنيد مزاعم المشركين فيما جعلوه لشركائهم من التحريم والتحليل:

لقد رد القرآن الكريم على المشركين الذين جعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا ولم يعدلوا فيما قسموه ولكنهم جاروا على حقوق الله في زعمهم وردوها للأصنام لأنهم كانوا إذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا منه ما لله، وإذا ذهب ما لله بالإتفاق على الضيفان والمساكين لم يعوضوا منه شيئًا وقالوا الله غني وشركاؤنا فقراء (٣).

أ-بالنسبة لتقسيمهم نصيبًا لله ونصيبًا لشركائهم فإن الأساس الذي بنوا عليه تلك القسمة باطل؛ لأن الله له ملك السماوات والأرض، فتقسيمهم لله من باب الجهل منهم وعدم تقدير الله حق قدره.

وعلى فرض أن تقسيمهم هذا جائز إلا أنهم أساءوا في حكمهم، وقد ذكر الرازي وجوهًا عديدة في إساءتهم لله منها:

١-أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى وهو سفه.

---

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة من التعليل (ص ٤٧- ٤٨).

(٢) انظر: أبو السعود (٥٣٩/٤).

(٣) القرطبي (٨٩/٧- ٩٠).

٢-أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع فكان أيضًا سفهًا.

٣-أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدر.

٤-أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ولا قدرة لها أيضًا على الانتفاع بذلك النصيب فكان إفراز النصيب لها عبثًا.

والمقصود من حكاية هذه المذاهب الفاسدة أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب وأن يصير ذلك سببًا لتحقيرهم في أعين العقلاء وألا يَلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة (١).

ب-أما بالنسبة لتحريمهم ما في بطون البحائر والسوائب على بعض أولادهم دون البعض الآخر فما نزل منها حيًا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث وما ولد ميتًا اشترك فيه الذكور مع الإناث.

فإن الله وصفهم بالكذب والافتراء عليه ، إذ لا علم لهم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما ذهبوا إليه، وسخر منهم واستنكر عليهم تحريمهم لأشياء لم يحرمها الله.

يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام :١٤٤]، يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم وذكر المشاهدة على مذهبهم ؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول، والمعنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل؟ (٢).

واتبع القرآن الكريم معهم طريقة السبر والتقسيم في الجدال معهم يقول

(١) التفسير الكبير للرازي (١٣/٢٠٥).
(٢) الكشاف (٢/٥٧).

النبي ﷺ فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الملك.. فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا لما قال الحبر تصديقًا له ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر :٦٧][١].

* * *

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥١٥) طبعة عيسى البابي الحلبي.

الرابع: الأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت لهم رسول قبل النبي وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعي وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال [١].

ثانيا: عبادة الكواكب:

تعد عبادة الكواكب من الشيوع بحيث لم تخل أمة من عبادتها بعد انحرافهم عن عبادة الله عز وجل ووحدانيته، فقد توجه إليها المصريون فعبدوا الشمس وعللوا ذلك بأنها مصدر الحياة وكل ما على الأرض ، وأيضًا عبدوا القمر وربطوا به وجود الخير والزرع، وعبدوا الشعرى اليمانية ؛ لأن ظهورها يكون بمثابة وصول الفيضان ورمزًا لبدء السنة الزراعية [٢]. وعبادة الفرس للنار مشتقة من كونها تمثل الكوكبين العظيمين الشمس والقمر [٣]، وكانت عبادة الكواكب شائعة عن البابليين والكنعانيين والعبرانيين والهنود [٤]، والصينيون عبدوا الشمس والقمر وكان لكل منهما ملك يعبده الناس ويستعينون به [٥]، وعرفت عبادة الشمس والقمر والكواكب عند العرب في اليمن وفي الجزيرة العربية، وكانت علة عبادتهم للشمس أنها مصدر النباتات ولأنها تمدهم بالضوء والحرارة. وعُبد القمر لأنه كان هاديًا للرجال في حلهم وترحالهم، أما الكواكب فلأنهم كانوا يعتقدون أن لها تأثيرًا في المطر والرياح والزرع [٦].

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/١٣٦- ١٣٧) بتصرف.

(٢) انظر: قصة الحضارة (٢/١٨٩)، وديانات مصر القديمة (ص ٢٥- ٢٦).

(٣) الفرس إمبراطورية الشاه الأعظم. مقال ضمن تاريخ العالم (٢/٤٤٣).

(٤) قصة الديانات سليمان مظهر (ص ٨- ٩) وما بعدها، ودراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٤٠٩).

(٥) مقدمة الحوار (ص ١٢).

(٦) انظر: المفصل (٦/٥٤- ٥٥).

وقد لخص الرازي شبهة عُبَّاد الكواكب في الشبه الآتية:

أولًا: أن الناس لما رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأرضي مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب كالفصول الأربعة، وظنوا أن السعادة والشقاوة مرتبطة بمنازل النجوم عبدوها من دون الله.

ثانيًا: أن الذين عبدوا الشمس والقمر اعتقدوا أن الله فوَّض تدبير كل واحد من الأقاليم إلى ملك يعينه.

ثالثًا: من الجائز أنهم اعتقدوا حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل [١].

وسنفند هذه الشبه مستندين إلى القرآن الكريم وإلى فهوم العلماء في الرد على عُبَّاد الكواكب.

الرد على شبه عباد الكواكب:

إن القرآن الكريم يقرر بداية أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله، وأنها من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان فعلى الإنسان أن ينتفع بالنعمة وأن يشكر المنعم عليها، هذا ما يوجبه الله على الإنسان.

أما حين يتوجه الإنسان إلى النعمة وينسى صاحب النعمة فهنا يتدخل الله رب العالمين عن طريق أنبيائه ليصحح لعباده مفاهيمهم عن طريق رسله، ولذلك فإن أنبياء الله لهم مقامان في الرد على عباد الكواكب .

المقام الأول: إقامة الدلائل على أن هذه الكواكب لا تأثير لها في أحوال هذا العالم وأنها مسخرة بأمر الله [٢].

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢/١٣٠- ١٣١)، وانظر: (١٣/٣٦- ٣٧)، وانظر الملل والنحل للشهرستاني (٢/٧٧- ٧٨)، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٤/١٤٦).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٣/٣٦).

وسنورد مجموعة من الآيات تقرر هذا الأمر، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف :٥٤].

وفي وصفها بأنها مسخرات مذللات تابعات لتصرفه سبحانه وتعالى فيهن بما يشاء فيه دلالة على أنها لا تأثير لها بنفسها في شيء أصلاً، ولذلك قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف :٥٤] أي: هو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته [١]، وبعد أن جمعهم في آية الأعراف أفرد الشمس في آية وأبطل عبادتها وكذلك القمر وكذلك الكواكب.

وكان المنهج المتبع في الإبطال أنها لا تأثير لها وأنها مخلوقات من خلق الله، يقول سبحانه وتعالى مبطلاً عبادة الشمس في سورة النمل: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل :٢٤-٢٦] .

ويجمع الشمس والقمر معًا وينهى عن السجود لهما إذ السجود لا ينبغي أن يكون إلا الله، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت :٣٧].

وينهى عن عبادة الكواكب فيقول: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم :٤٩].

ومفاد هذه الآيات أن الشمس مسخرة لله سبحانه لا ينبغي السجود لها ولكن الله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وقد جاء الأمر بصيغة

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٣٨/٨).

التخصيص في آية سورة النمل، والنهي في سورة فصلت عن السجود للشمس ولا للقمر والأمر بالسجود لله وحده رب الشعرى؛ فلا ينبغي أن تعبد؛ وخص الله الشعرى بالذات ؛ لأن العرب كانت تعبده فأعلمهم الله عز وجل أن الشعرى مربوب وليس برب؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك، أكد ذلك بالفصل فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم :٤٩] للتأكيد على ذلك [١].

المقام الثاني: في إبطال شبهة عباد الكواكب يتمثل في أن الكواكب بتقدير أنها تفعل شيئًا ويصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلا أن دلائل الحدوث حاصلة فيها فوجب كونها مخلوقة، والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال بعبادة الفرع [٢]، ويندرج تحت هذا النوع مجموعة من الآيات على رأسها قصة سيدنا إبراهيم في إبطال عبادة الشمس والقمر والكواكب يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٦-٧٩].

لقد عرض الله ما فعله سيدنا إبراهيم في إبطال عبادة الكواكب فإنه عليه السلام لما عرف أن القوم على دين آبائهم وأجدادهم، وتقليدهم لهم. مال بهم إلى طريق يستدرجهم من خلاله إلى سماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلامًا يوهم كونه مساعدًا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه كان مطمئنًا بالإيمان. حتى إذا قام عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل [٣].

---

(١) انظر: القرطبي (١١٩/١٧)، وتفسير الرازي (٢٢/٢٩- ٢٣)، وانظر: فتح الباري (٤٩٠/٨-٤٩١)، كتاب التفسير وبلوغ الإرب للألوسي (٤٢٠/٢)، وابن كثير (٣٦٠/٣- ٣٦١).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣٦/١٣).

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٥٠/١٣).

ونلاحظ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عبَّر بالأفول عن حركة الكواكب والشمس والقمر وحدوثها بدلاً من الغروب مع أن الكلمتين تدلان على الحدوث، إلا أن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق إلى الله لا بد وأن يكون ظاهرًا جليًا، بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل، ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفضل من الخلق، أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد، فإن الكوكب سلطانه يزول وقت الأفول، فكانت دلالته على المقصود أتم (١).

وطريقة سيدنا إبراهيم تفسر المحاولة الاهتدائية كما تؤكد صورة التدرج النفسي في طريق الهداية عن طريق التجربة العقلية (٢) أمام الخصم.

ويلحق بالمقام الثاني الذي يدل على أن هذه الكواكب حادثة ولا تأثير لها ويجب الاشتغال بعبادة خالقها لا عبادتها آيات نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس :٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس :٣٨-٤٠] .

هذا عن الشمس والقمر أما عن النجوم فآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل :١٦-١٨].

وهذه الآيات تقرر جميعها أن الشمس والقمر مخلوقان لله رب العالمين ومسخران لبني آدم ليسيروا في نورهما ويعلموا من خلالهما عدد السنين

---

(١) التفسير الكبير (١٣/٥١- ٥٢)، وانظر: الكشاف (٢/٣٠- ٣٢).

(٢) صراع المذاهب والعقيدة في القرآن (ص ٣٣٣) عبد الكريم غالب الناشر دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

والحساب، وكل منهما لا يستطيع أن يخرج عما كلف به فلا الشمس تسرع في حركتها حتى تدرك القمر والقمر هو الآخر يسير بقدر لا يخرج عنه [١] والنجوم يهتدى بها.

والتعقيب: مَن الذي يستحق العبادة: الخالق أو المخلوق؟

ثالثًا: دعوى الولدية:

من الشُّبه التي أثارها المشركون زعمهم أن لله ولدًا، وهذا القول ليس مقصورًا على المشركين واليهود والنصارى فحسب، وإنما هذه الشبهة وجدت عند الأمم الوثنية قبل الإسلام، فالمصريون اعتبروا أن ملوكهم آلهة وأبناء آلهة.

والبوذية اعتبرت بوذا إلهًا وأمه والدة الإله [٢]، ونسجت حولهما من الأساطير ما أخرجهما عن نطاق البشرية، والعرب كانوا يعتبرون الملائكة بنات الله [٣]، وسنكتفي بمناقشة المشركين العرب في زعمهم أن لله ولدًا، تاركين مناقشة اليهود والنصارى إلى المبحث الخاص بهما.

تقوم شبهة المشركين على ادعاء أن الملائكة بنات الله، يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات :١٥١-١٥٣][٤]، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف :١٥-١٦] .

هذه مجمل دعوى الذين قالوا إن لله ولدًا.. ولقد رد القرآن الكريم عليهم وبيَّن أن قولهم باطل من وجوه:

---

(١) انظر: أبو السعود (٤/٣٨٥- ٣٨٦)، وانظر القرطبي (١٠/٩٢- ٩٤).

(٢) ديانات مصر القديمة (ص ٦١).

(٣) الفلسفة الهندية (ص ٢٦٣).

(٤) تفسير أبي السعود (٤/٣٥٥).

الوجه الأول: أن دعواهم لا دليل عليها من عقل أو نقل، فهم كاذبون في قولهم إن الملائكة بنات الله إذ لا حجة لهم ولا بينة ولذلك يسأل سبحانه إلى أي شيء استندتم في حكمكم هذا؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات :١٥٦] ، والسلطان يأتي بمعنى الحجة والبرهان أو الحجة والعلم والبيان فما هي حجتكم؟ وما هو علمكم الذي علمتم منه هذا؟ ولذلك تحداهم فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات :١٥٧].

يذكر الرازي أن كلام المشركين في نسبة الولد إلى الله باطل من جهة الحس والخبر والنظر فأما الحس فمفقود؛ لأنهم ما شهدوا هذا الولد، وأما الخبر فمفقود أيضًا ؛ لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقًا قطعًا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وأما النظر فمفقود أيضًا ؛ لأن العقل يقتضي فساد مذهبهم، فالله أكمل الموجودات والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد بقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات :١٥٣-١٥٤]، والمعنى أن العقل يقضي إسناد الأفضل إلى الأفضل لا إسناد الأدنى إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل هو المعتد به كان قول المشركين باطلاً، وعلى هذا فإن ما ذهبوا إليه لم يدل على صحته لا الحس، ولا الخبر، ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعًا (١).

وبعد أن يبطل القرآن الكريم شبهة المشركين من أساسها يناقشهم من زاوية أخرى وهي أنه على افتراض أن لله ولدًا فإنه لن يتخذ البنات ولكنه سيصطفي من خلقه ما يشاء، يقول سبحانه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر :٤]، والمراد أن يقيم الدلائل الثابتة على كونه منزهًا عن الولد لأنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٦٧/٢٦- ١٦٨).

بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف ينسبون إليه البنت وهم لا يرضون ذلك لأنفسهم، يقول عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف :١٥-١٩].

إن القرآن الكريم يتعجب من جهل المشركين وينكر عليهم جعلهم لله جزءًا وهو الإناث دون الذكور مع أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن، والله عز وجل يعيب عليهم ما جعلوه له وكأنه يقول: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إلى الله جائزة فرضًا وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما (١).

يذكر الرازي أن الله تعالى في هذه الآية: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ [الزخرف :١٦]، رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه، وذلك لأنه تعالى بيّن أن إثبات الولد لله محال، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتًا أيضًا محال، أما بيان أن إثبات الولد لله محال فلأن الولد لا بد أن يكون جزءًا من الوالد وما كان له جزء كان مركبًا وكل مركب ممكن وأيضًا ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون إلهًا قديمًا.

وعلى تقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتًا وذلك ؛ لأن الابن أفضل من البنت، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله وذلك مدفوع في بديهة العقل (٢).

---

(١) الكشاف: (٣ظ٤٨١- ٤٨٢).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٠١/٢٧).

الوجه الثاني: إن الله ليست له صاحبة فكيف يكون له ولد؟

إن القرآن الكريم يبطل ادعاءهم فيبين أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة ولا بد أن تكون الزوجة من جنس الزوج، ولذلك فإن الله نزَّه نفسه عن الولد والصاحبة فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام :١٠١-١٠٢]، وهذا الطريق في المحاج هو ما يطلق عليه العلماء الاستدلال بالتعريف أي أن نفي الولد وإثبات الوحدانية جاء من التعريف بآثار الله (١) وخلقه، ومن كانت هذه صفاته وآثاره امتنع أن يكون له ولد أو شريك.

يقول ابن تيمية: **«فأخبر أن المتولد لا يكون إلا عن أصلين كما تكون النتيجة عن مقدمتين وكذلك سائر المعلولات المعلومة لا يحدث المعلول إلا باقتران ما تتم به العلة فأما الشيء الواحد فلا يكون علة ولا والدًا قط»** (٢)، وقد نفت الآية السابقة الولد من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه مبدع السماوات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف خالقها بالجسم ومن ثَمَّ لا يصح أن يكون والدًا.

الثاني: أن الولادة لا تكون إلا من زوجين من جنس واحد وهو متعال عن ذلك فلما لم يصح أن له صاحبة لم يصح أن له ولدًا.

الثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيًّا عن كل شيء والولد إنما يطلبه المحتاج، وقد ثبت أن الله غني عن العالمين (٣).

---

(١) المعجزة الكبرى (ص ٣٤٧- ٣٤٨).

(٢) نقض المنطق لابن تيمية (ص ١٠٧)، وانظر: (ص ١١١).

(٣) انظر في إبطال دعوى الولدية الكشاف (٢/٤١)، والتفسير الكبير (١٤/١١٦)، والقرطبي (٧/ ٥٣- ٥٤)، وانظر: درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٧/٣٦٢- ٣٦٩)، وانظر: الاستدلال القرآني (ص ٤٩).

وبعد أن يبطل القرآن الكريم شبهة المشركين في دعوى الولدية يقرر الله عز وجل الوحدانية في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون :٩١].

ولقد تضمنت الآية برهانًا عقليًا [١] على نفي الولد والشريك وهذا البرهان يعتبر من أوكد الأدلة لأنه يقتضي الصدق لا محالة [٢].

ونلاحظ زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ و﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وهذا يدل على أنه مستغن عن كل منهما في أي صورة من الصور أيًا كان الولد وأيًا كان الشريك [٣].

وفي سورة الإخلاص نفي للولد والشريك وإثبات للوحدانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :١-٤] .

وقد نزلت هذه السورة حين جاء المشركون إلى النبي ﷺ يقولون: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص :١] إلى آخرها [٤].

وقد نفت هذه السورة أنواع الكفر الثمانية كما يذكر البيجوري فقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص :١] نفي للكثرة والعدد وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص :٢] نفي للقلة والنقص، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص :٣] نفي للعلة والمعلولية أي: أن يكون تعالى علة لغيره وأن يكون معلولاً لغيره، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :٤] نفي للشبيه والنظير [٥].

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٩).
(٢) الاستدلال القرآني (ص ٢١١).
(٣) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٣٠).
(٤) لباب النقول في أسباب النزول (ص ١٥٤٣).
(٥) البيجوري على الجوهرة (ص ٦٩) بتصرف.

ويذكر ابن تيمية أن الله نزه نفسه في سورة الإخلاص عن الوالد والولد وكفَّر من جعل له ولدًا أو والدًا أو شريكًا، وسورة الإخلاص لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها وعليها اعتماد الأئمة في التوحيد، والله قد نفى عن نفسه فيها الأصول والفروع والنظراء وهي جماع ما نسب المخلوق إليه من الأوصاف التي لا تليق به سبحانه، فقوله: «لم يلد» رد لقول من يقول إن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر أو يقول المسيح ابن الله أو العزير ابن الله وقوله لم يولد [١]، أي لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولاحقًا، وقد نبه على عدم ولادته بالرغم أن أحدًا لم يقل به للإشارة إلى أنهما متلازمان إذ المعهود أن ما يلد يولد، وما لا يلد لا يولد، ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد الاعتراف بأنه لا يلد [٢].

تعقيب:

بعد أن انتهينا من عرض شبه المشركين والرد عليهم في عبادتهم للأصنام والكواكب ودعواهم اتخاذ الله ولدًا.. نأتي بنماذج من الأدلة التي وردت في القرآن الكريم لإثبات الوحدانية ونفي الشريك في كل مظاهره، وقد سلك القرآن الكريم مسالك متعددة في إثبات الوحدانية ونفي الشريك لطرق متعددة.. تمثلت في:

١-نفي ما سوى الله.

٢-الأدلة الخطابية.

٣-الأدلة البرهانية.

الطريقة الأولى: اشتملت على صيغتين هما:

١-**أسلوب الاستثناء التام المنفي**: مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ

(١) توحيد الألوهية لابن تيمية (٢/٤٣٨- ٤٣٩) بتصرف.

(٢) أبو السعود (٤/٩١٣) بتصرف يسير.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة :١٦٣]، ومثل قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة :٢٥٥]، ومثل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران :٦] ومثل قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :٦٢].

وهذه الصيغة ترد كثيرًا فيما يقرب من تسع وخمسين [١] موضعًا تتحدث عن نفي كل ألوهية لغيره وتثبت في الوقت ذاته الألوهية له عز وجل.

يقول الرازي:

«**معناه أنه واحد في الإلهية لأن ورود لفظ الواحد بعد لفظ الإله يدل على أن تلك الوحدة معتبرة في الإلهية لا في غيرها، ولما قال**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة :١٦٣] أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هب أن إلهنا واحد فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا فلا جرم زال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة :١٦٣][٢].

٢-**أسلوب الاستفهام الإنكاري**: وقد وردت آيات كثيرة بهذا الأسلوب الذي ينفي الشريك لله، أيًّا كان ويثبت الوحدانية له سبحانه وتعالى يقول تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

---

(١) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٦).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٤/١٩٦).

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل :٥٩-٦٤](١)

ومعنى الآيات أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكًا له تعالى في العبادة، وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركونه به تعالى في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحدًا ممن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسًا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى (٢).

الطريقة الثانية: إثبات الوحدانية بالأدلة الخطابية:

وقد استخدم القرآن صيغتين لإثبات الوحدانية عن هذه الطريقة:

الصيغة الأولى: صيغة الإخبار:

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد :١٦].

يقول القرطبي: «بين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك فكيف يعلم أن الفعل من اثنين؟ والآية رد على الشركية والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله» (٣).

---

(١) وهناك من الآيات التي وردت بنفس الصيغة على سبيل المثال لا الحصر: الأنعام: (١٩، ٤٦)، والأعراف: (١٤٠)، ويوسف: (٣٩)، والقصص الآية: (٣٩).

(٢) أبو السعود (٢٠٩/٤).

(٣) القرطبي (٣٠٤/٩) بتصرف.

ومثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦][١].

الصيغة الثانية: **الحصر**: وقد وردت آيات متعددة بهذه الصيغة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١]. وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [الكهف:١١٠][٢].

وإن دل تعدد الصيغ في نفي الألوهية عن كل ما سوى الله تعالى ؛ لأن الشرك لما كان مستنكرًا مستقبحًا فالتنفير عنه يكون بالآيات الكثيرة التي تثبت الوحدانية ليصير توالي تلك الآيات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من قبح، والله عز وجل قد نفى الشريك بكل معنى وصيغة يليقان بذاته، وبين أن الشرك منفي بكل وجه من الوجوه العقلية واللغوية وبكل صيغة دالة على ذلك [٣].

الطريقة الثالثة: إثبات الوحدانية بالأدلة البرهانية:

وهذه الطريقة تضمنتها بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]. وهذه الآية أخذ منها علماء الكلام ما يسمى بدليل التمانع.

يقول الأشعري في اللمع: «**إن قال قائل لم قلتم إن صانع العالم واحد؟ قيل: لأن**

(١) هناك آيات كثيرة وردت تثبت الوحدانية بصيغة الإخبار: البقرة: (١٦٣)، إبراهيم: (١٤٨)، والحج: (٣٤)، والنمل: (٢٢)، والعنكبوت: (٤٦)، والصافات: (٤)، وغافر: (١٦).

(٢) سورة كهف الآية: (١١)، والأنبياء الآية: (١٠٨)، وفصلت الآية: (٦)، وغيرها كثير.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٠/٤٧)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٨).

الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحدًا منهما لأن أحدهما إذا أراد أن يحيى إنسانًا وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعًا أو لا يتم مرادهما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعًا أو لا يتم مرادهما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن لا يتم مرادهما جميعًا ؛ لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيًا ميتًا في حال واحدة، وإن لم يتم مراهما جميعًا وجب عجزهما والعاجز لا يكون إلهًا، ولا قديمًا، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلهًا ولا قديمًا وهذا يؤكد قول ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء :٢٢]» (١).

ويصوغ هذا الدليل بطريقة أخرى **«السعد التفتازاني»** في شرحه على العقائد النسفية فهو يذكر: أن واجب الوجود لا يصدق إلا على ذات واحدة ويسوق الآية السابقة ويستنبط منها أنه لو أمكن إلهان فأراد أحدهما حركة إنسان وأراد الآخر سكونه فإما يحصل الأمران فيجتمع الضدان أو لا يحصل فيلزم عجزهما. أو يحصل من أحدهما فيكون الآخر عاجزًا وهو أمارة الحدوث والإمكان لما فيه من شائبة الاحتياج، فالتعدد يستلزم لإمكان التمانع المستلزم للمحال فيكون محالاً، وهذا تفصيل ما يقال إن أحدهما إن لم يقدر على مخالفة الآخر لزم عجزه وإن قدر لزم عجز الآخر وبهذا يندفع ما يقال إنه يمكن أن يتفقا من غير تمانع أو تكون الممانعة والمخالفة غير ممكنة لاستلزامهما المحال (٢).

ويسوق **«عضد الدين الإيجي»** دليل المتكلمين المستنبط من الآية القرآنية على هذا النحو. يقول إن المتكلمين قالوا يمتنع وجود إلهين مستجمعين لشرائط الإلهية لوجهين:

---

(١) انظر: اللمع للأشعري (ص ٢٠- ٢١)، وانظر: نهاية الإقدام للشهرستاني والإرشاد للجويني (ص٥٤)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٣٦/٢)، وأبو السعود (٥١١/٤).

(٢) شرح التفتازاني على العقائد النسفية (ص ٦٢- ٦٣).

الأول: لو وجد إلهان قادران لكان نسبة القدورات إليهما سواء إذ المقتضى للقدرة ذاتهما وللمقدورية الإمكان فتستوي النسبة فإذا يلزم وقوع هذا المقدور المعين إما بهما وهو باطل لامتناع وقوع مقدور بين قادرين وإما بأحدهما ويلزم الترجيح بلا مرجح.

الثاني: إذا أراد أحدهما شيئًا فإما أن يمكن من الآخر إرادة ضده أو يمتنع وكلاهما محال (١).

وكما أن الآية تفيد دليل التمانع (٢) تفيد أيضًا بما دليل التوارد، أي على هذا

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي (ص ٢٧٨- ٢٧٩).

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن دليل التمانع الذي ذهب إليه المتكلمون نقده بعض المتكلمين أنفسهم مثل الآمدي ونقده أيضًا ابن رشد في مناهج الأدلة.

أ-يقول الآمدي في غاية المراد: أما المتكلمون فقد سلك عامتهم في الإثبات رأيين ضعيفين: الأول: أنهم قالوا: لو قدرنا وجود إلهين وقدرنا أن أحدهما أراد تحريك جرم ما والآخر تسكينه. ص ١٥١ .

وساق دليل التمانع الذي ذكره المتكلمون. الثاني: أنهم قالوا: الطريق الموصل إلى معرفة الباري تعالى ليس إلا وجود المحادثات لضرورة افتقارها إلى مرجع ينتهي الأمر عنده وهي لا تدل على أكثر من واحد». انظر: غاية المرام في علم الكلام ص ١٥٣.

وبعد أن نقد الآمدي دليل المتكلمين ساق دليلاً رآه أكثر دقة من وجهة نظره من دليل المتكلمين يقول: «والصواب أن يقال: لو قدرنا وجود إلهين لم يخل إما أن يشتركا من كل وجه أو يختلفا من كل وجه أو يشتركا من وجه دون وجه. فإن كان الأول فلا تعدد ولا كثرة. وإن كان الثاني فلا محالة أنهما لم يشتركا في وجوب الوجود ولا فيما يجب لله من الكمالات ويستحيل عليه من الصفات وإذ ذاك فأحدهما لا يكون إلهًا وإن كان الثالث فتخصيص ما به الاشتراك بما به الافتراق في كل واحد منهما إما أن يستند إليه أو إلى خارج عنه فإن استند إما أن يكون ذلك له بالذات أو بالإرادة لا جائز أن يكون له بذاته وإلا لوجب الاشتراك فيه لضرورة أن المقتضى له فيهما واحد وإن كان ذلك له بالإرادة استدعى كونه متحققًا وموجودًا دون ما خصصه وهو محال، وإن كان ذلك مستندًا إلى خارج لزم أن يستند في وجوبهما كل واحد على صاحبه وهو ممتنع ومع كونه ممتنعًا فيلزم أن يكون كل منهما ممكنًا وجوده وهو محال» غاية المرام ص ١٥٣.

ب-أما ابن رشد: فهو ينقد دليل الأشاعرة على وجه الخصوص يقول: «أما ما تتكلفه الأشعرية من الدليل الذي يسمى بالممانعة والمستنبط من الآية الكريمة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء :٢٢]، فشيء ليس يجرى مجرى الأدلة الطبيعية والشرعية أما كونه ليس يجري مجرى الشرع فلأن الجمهور لا يقدرون على فهم ما يقولون من ذلك فضلاً عن أن يقع لهم به إقناع. وأما كونه ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية فلأنهم قسموا الآية إلى ثلاثة أقسام وليس في الآية تقسيم ودليلهم الذي استعملوه هو الذي يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطي المنفصل، ويعرفونه هم في صناعتهم بدليل السبر والتقسيم» مناهج الأدلة ص ١٥٧- ١٥٨ بتصرف. وبعد أن ينقد دليل الأشاعرة يقول ابن رشد: «والمحال

التحصيل الحاصل، وليس بجائز أيضًا أن يوجد أحدهما البعض والثاني البعض الآخر لأنه يلزم عجزهما؛ لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز [١].

ومن الآيات التي تبرهن على نفي الشريك وإثبات الوحدانية لله عز وجل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون :٩١].

يقول البيهقي: «يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد وعلو بعضهم على بعض وما يدخل من الفساد في الخلق من وجود آلهة معه، فيستدل بذلك على أنه إله واحد لا شريك له» [٢].

والآية فيها الاستدلال على نفي الشريك وإثبات الوحدانية، بالتسليم وهو فرض المحال إما منفيًا أو مشروطًا بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ثم يسلم تسليمًا جدليًا وعلى تقدير وقوع المسلم به جدلاً يدل على عدم فائدته ويكون معنى الآية ليس مع الله من إله ولو سلمنا أنه معه سبحانه وتعالى إلهًا لزم من ذلك التسليم بذهاب كل إله بما خلق وعلو بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعدًا محال لما يلزم منه المحال، والآية تفيد أنه لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهما بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتجارب كما هو جارٍ بين الملوك، وقد قام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود الواحد بالذات [٣].

الذي أفضى إليه دليل الكتاب ليس مستحيلاً على الدوام وإنما علقت الاستحالة فيه على وقت مخصوص وهو أن يوجد العالم فاسدًا في الآية ثم استثنى أنه غير فاسد فوجب ألا يكون هناك إلا إله واحد». مناهج الأدلة ص ١٥٩.

(١) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ٦٦).

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد تصنيف البيهقي الشافعي بتصرف.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٣٧/٢)، وأبو السعود (٦٢/٤).

توحيد العبودية:

بعد أن أثبت القرآن الكريم الوحدانية بكل الأساليب كما رأينا من نفي الشرك وإثبات الوحدانية والاستدلال بالأدلة الخطابية والبرهانية، أكثر من التنبيه على العبودية له وحده وأوضح القرآن الكريم أن العبودية لله وحده كانت محور رسالة الأنبياء.

يقول تعالى عن دعوة نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف :٥٩].

وهي دعوة هود ، يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف :٦٥].

وهي دعوة صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف :٧٣].

وبالجملة فهي دعوة جميع الأنبياء يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥].

ويقول: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف :٤٥].

والمعنى: أن الأنبياء جميعًا جاءوا بالتوحيد وعبادة الله ، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود والدليل إما معقول أو منقول، وقال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد [١].

وبناء على هذا فإن الإيمان المعتد به في الشرع هو ما كان شاملاً لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وهما متلازمان لدى المؤمن على وجه شرعي

---

(١) القرطبي (٢٨٠/١١).

ولكنهما منفكان لدى المشرك الذي يرى الله فاعلاً ولكن لا يعبده ولذلك فإن الإيمان الشرعي المقبول عند الله هو الجامع للتوحيد بكل معناه التوحيد فعلاً والطاعة خلقًا وعبادة مسيطرة وخضوع هيمنة واستسلام (١). ومن هنا فإن أي إيمان بدون طاعة وامتثال فهو إيمان ناقص، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة :٥].

* * *

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (١٣٤- ١٣٥).